



JOC: Journal of Calligraphy

Available online at:

<http://journalpps.um.ac.id/index.php/joc/> E-ISSN: 2797-8788

Vol. 3 No. 2 – December 2023

الرسم القرآني والتحليل النحوي في كتب التفسير تفسير البحر المحيط لأبي حيان النحوي نموذجًا

الدكتورة: آيات إسماعيل الصالح

ayataalsalih@gmail.com

ARTICLE INFO

Article History:

Received: June 1, 2023

Revised: September 28, 2023

Accepted: November 29, 2023

Published: December 30, 2023

*Corresponding Author:

Name: Ayat Alsalihi

Email: ayataalsalih@gmail.com

ABSTRACT

If the fonts of the words of the verses of Allah were drawn by the hands of the most honorable people after the Messengers, and weighed with their minds, then many of the exegetes and those who work in the sciences of the Qur'an and the sciences of Arabic have been stuck to that font. Their knowledge provided them with arguments so that they could extract it out of any problem and push away all illusion, and so that this font would be compatible with an aspect of Arabic and in harmony with the meaning.

This research will address the impact of the Qur'an font on grammatical analysis in the interpretation of the Albahir Almuhi by Abu Hayyan, as this interpreter sanctified the Qur'anic font in reverence, which made him search for a grammatical interpretation in harmony with the meaning and consistent with the expression of everything that came from the font in contravention of the rules of Arabic.

Copyright © 2023, First Author et al

This is an open access article under the [CC-BY-SA](#) license[SA](#) license

Keyword

The Qur'an Font, Meaning, Syntax, Grammatical Analysis, Grammatical Interpretation.

مستخلص البحث

إذا كانت رسوم كلمات آيات الله قد حُطَّت بأيدي أكرم الناس بعد الرسل، ووزنت بعقولهم، فإن كثيراً من المفسرين والمشتغلين بعلوم القرآن وعلوم العربية قد عَضُّوا على ذلك الرسم بالنواجذ، فإن وجدوا في الرسم ما يخالف قواعد النحو أو اللغة حاولوا أن يؤولوه ويحتجوا له بكل ما أمدهم به علمهم من الحجج ليخرجوه تحريجاً يُبعد عنه أي إشكال ويدفع كل توهم، وليكون هذا الرسم متلائماً مع وجه من وجوه العربية ومتناغماً مع المعنى. وسيتناول هذا البحث أثر رسم المصحف القرآني في التحليل النحوي في تفسير البحر المحيط لأبي حيان النحوي، إذ قدس هذا المفسر الرسم القرآني تقديساً جعله يبحث عن تأويل نحوي يتناغم مع المعنى ويتواءم مع الإعراب لكل ما جاء من الرسم مخالفاً لقواعد العربية.

المقدمة

كانت صدور الصحابة الأول المنازل الأولى للقرآن الكريم، لما نُجِّم بينهم، إذ واكبوا آياته وهي تنزل بين ظهرانيهم، والرسول يتلوها عليهم، فيسمعون كلام الله بأذانهم، ويفقهونه بقلوبهم. إلا أن عهدهم هذا ما لبث أن ولَّى وانصرم، وإذا بالناس تتباعد عن قرآنهم كلما ابتعد الزمن بهم عن عهد نزوله، ولم يخف ذلك على الصحابة الكرام ولا سيَّما الخلفاء الراشدون أبو بكر (السجستاني والأشعث، ١٥٣: ٢٠٠٢) (السعيد ولبيب، بدون السنة: ٤١) (محيسن و سالم، ١٤٠٢هـ: ١٣٣) (. وإسماعيل و محمد، ٢٠٠١م: ١١) (الأكرت و حسن، ٢٠٠٨م: ٣٨)، وعمر (السجستاني والأشعث، ١٧٠: ٢٠٠٢)، وعثمان (السجستاني والأشعث، ١٩٥: ٢٠٠٢)، من بعدهما، إذ وعوا خطورة اللحن في القرآن، واستشعر وجدانهم غيرة على كلام الله من الضياع، ففكروا بجمعه وكتابته (الكردي و القادر، ١٣٦٥هـ: ٢٠-٣٥) (والفرماوي و حسين، ٢٠٠٤م: ٩١-٩٤) (وزرزور و محمد، ٢٠٠٥م: ١١٧-١٥٩)، وما لبثت أن استوت تلك الفكرة خطَّة في عهد عثمان اختار لتنفيذها رهطاً كريماً من الكاتبيين وهم: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام (النسائي و شعيب، ١٩٩٢م: ٧٤) (والداني و سعيد، بدون السنة: ١٤) ينسخون ما عهده المسلمون في صدورهم من كلام الله، وما حفظته أيمانهم في الرقاع، فإذا اختلفوا في ذلك في شيء ردَّوه إلى عثمان فحكم بينهم وأشار عليهم بلغة قريش لأنَّ القرآن إنما نزل بها (الموصلي والآخرين، ١٩٧٣م) (عبد الملك، ٢٠٠٣م: ٢٢١) (والذهبي و عثمان، ٤٤٠: ١٩٩٠)

ولما كان ذلك من السنَّة التي يجب العضُّ عليها بالنواجذ، امتثالاً لقول النبي: "عليكم بسنِّي وسنَّة الخلفاء الراشدين (تيمية، بدون السنة: ٩٢) (كثير و عمر، ١٤٠٦هـ: ١٦٢) "فقد استمسك الناس بعروة هذا الرسم (الزركشي، بدون السنة: ١٦٢) (والشنقيطي و الشيخ عبد الله، ١٩٧٢م: ١٢-٢٦) (إسماعيل و محمد، بدون السنة: ٦٣) (والجزائري و شرشال، ٢٠٠٢) (وصالح و عوضك، ٨٩، ٣٠: ٢٠٠٦-٩٠)، الذي سُمِّي فيما بعد الرسم العثماني نسبة إلى عثمان بن عفَّان (الحداد و قدوري، ١٩٨٢م: ١٥٢) (ومحيسن و سالم، ٥٩: ١٩٩٤) (وشلبي و إسماعيل، بدون السنة: ١١).

نتائج البحث ومناقشتها

والرسم في اللغة: الأثر (الفراهيدي: ٢٥٢). أي: أثر الكتابة في اللفظ. ويرادفه: الخط، وإن غلب الرسم على خطِّ المصاحف. "وينقسم الرسم إلى قسمين: قياسي، واصطلاحي، فالرسم القياسي: هو تصوير اللفظ بحروف هجائية، مع مراعاة الابتداء بالكلمة، والوقف عليها. والرسم الاصطلاحي، ويقال له العثماني: ما

كتبت به الصحابة رضوان الله عليهم المصاحف. وأكثره موافق لقواعد الرسم القياسي، إلا أنه خالفه في أشياء" (محيسن و سالم، بدون السنة: ٢٠)، دونها بعض العلماء في مصنفات (محيسن و سالم، بدون السنة: ٥٤-٥٧). ويميل كثير من العلماء إلى أن مسألة الرسم القرآني ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية الأحرف السبعة، لا سيما على رأي من رأى أن الأحرف السبعة موجودة في اللفظ والصوت القرآني (الزركشي، بدون السنة: ٧٣-٧٤). لأن "أي تغيير في رسم بعض الكلمات القرآنية، غالباً ما يؤدي إلى تغيير في بنية الكلمة يترتب عليه تحريفها، أو تغيير في الوقف عليها، أو ربما أدى في بعض الأحيان إلى إسقاط قراءة منزلة (الجزائري و شرشال، بدون السنة: ٣٣)

وإذا كانت رسوم كلمات آيات الله قد خطت بأيدي أكرم الناس بعد الرسل، ووزنت بعقولهم، فإن قوفاً من المفسرين والمشتغلين بعلوم القرآن قد وجدوا أن ذلك الرسم إنما يمثل المعنى في أدائه (الزركشي، ٣٨٠/١) (والحمد و قدوري، ٢٢٣-٢٢٤)، لأن الكلمة ما كتبت على لفظها إلا "لحكم خفية وأسرار بهية" (الزركشي، ٣٨٠/١). فإذا كانت الألف قد زيدت بعد اللام في ﴿لَا أُذِجْنَهُ﴾ من قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذِجْنَهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١] فإن زيادتها عند بعضهم قد كانت لعل معنوية مفادها أن المؤخر من العقاب أشد من المتقدم عليه (الزركشي، ٢٠٠٨م: ١٩٢). وكذا الحال في زيادة الواو في ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥] إذ إن منهم من رأى أن الواو جاءت زائدة تنبيهاً على ظهور الفعل للعيان على أعظم ما يكون ولا سيما أن الآية سيقت في مقام التهديد والوعيد (الزركشي، ٣٨٦/١) (القليني و سامح: ١٢). أما حذف الحروف في الخط فربما كان، أيضاً، لسر أودعه الكتبة رسم المصحف إذ يفيد حذف الواو، مثلاً، من الأفعال في نحو: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]، و﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرًا﴾ [القمر: ٦]، ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] التنبيه على سرعة وقوع الفعل وسهولته على القائم به (الزركشي، ٣٩٨/١).

غير أن ذلك لا يخلو من مغالاة وتعتسف، فالصحابة رضوان الله تعالى عليهم لم تجر تلك المعاني في أذهانهم عندما أجروا أقلامهم يخطون المصحف. وهب أننا سلمنا بذلك فهو، لعمري، مما يوقع باللبس والإشكال، فلو قلنا: إن رسمهم ﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤] بحذف الواو من (يمحو) قد كان منهم للتنبيه على سرعة المحو، فهل يعني أن إثباتها في ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّثُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩] يدل على التراخي؟! (الحمد و قدوري، ٢٣٠) اللهم لا.

وإذا سبرنا أعماق البحر المحيط نجد أبا حيان قد ابتعد عن مثل تلك التأويلات فلا نكاد نرى لها أثراً، إنما نراه يبحث، فيما احتواه علمه من النحو، عن وجه لذلك الرسم يوافق المعنى، ويتناغم مع الإعراب، فلا يخطئ الكتبة، ولا يصحف الخط.

فلَمَّا كُتِبَتْ ﴿يَا ت﴾ في قوله تعالى: {يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [هود: ١٠٥] على صورتها في مصحف الإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقرئت بحذفها وصلاً ووقفاً، وكان الوجه إثباتها وصلاً ووقفاً، لم يخطئ أبو حيان ذلك الرسم، وإنما خرّجها على ما عرفه من معهود النظم، فرأى أنّ الوجه في حذفها في الوقف التشبيه بالفواصل، والوجه في الوقف والوصل التخفيف، كما قالوا: لا أدر، ولا أبال (حيان، ٢٦١/٥).

وفي قوله تعالى: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُؤُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧] جاءت كلمة ﴿الْمُؤْفُونَ﴾ بالرفع على الخبر، وقد كانت صفة من عدّة صفات متتالية في الآية تبين معنى البرّ، الذي يرضى عنه المولى عزّ وجلّ. ولكنّها قد خطّت في مصحف عبد الله على هذه الصورة (الموفين)، فلم يتركها أبو حيان إلّا وقد حاول لها تأويلاً يتواءم مع سياق الآية فقال: إنّ نصبها كان على المدح (حيان: ٩/٢)، أي بتقدير فعل محذوف (أمدح)، فإذا علمنا أنّ الآية كانت لبيان صفات المتّقين التي وصلوا بها إلى مرتبة البرّ، رُتبت على نسق واحد، وارتبطت بحرف العطف فتماسكت به تماسكاً بيّناً، حتّى إذا اعتدنا هذا النسق، وألفنا ذلك الترابط تلوّن الخطاب فجأة ليشعر بالاهتمام بأولئك الذين ثبتوا على عهدهم ووفوا به.

ولما كان رسم مصحف الإمام ما هو إلّا توثيق للقراءات كما خرجت من أفواه أصحابها الكرام، نقلاً عن النبيّ الأعظم ﷺ، فإنّنا نرى الأجلّاء من العلماء، كأبي حيان، قد حاولوا لذلك الرسم وتلك القراءة تأويلاً يتوافق مع المعنى القرآنيّ، ويطابق وجهاً من العربيّة، وهو مع ذلك لا يدحض رسم الصحابة العارفين. ففي قوله تعالى: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} [النمل: ٢٥] قرئت هذه الآية بتشديد اللام، وقرأها ابن عبّاس، والزهريّ، والسلميّ، والحسن، وحميد، والكسائيّ بتخفيف اللام (الزجاج: ١١٥/٤) (خالويه: ١٤٨/٢) (وابن غلبون: ٤٧٤/٢) (القيسيّ: ١٥٦/٢) (والرعيّنيّ: ١٧٤) (النشّار: ٢٦٥)، وقد خرّجت قراءة التخفيف على أن تكون (ألا) حرف استفتاح، و(يا) حرف نداء، وقد حذف المنادى بعده. أمّا (اسجدوا) فهو فعل أمر، وقد كان حقّ الخطّ أن يكون: يا اسجدوا، ولكن الصحابة رضوان الله عليهم لما أسقطوا لفظاً ألف (يا) التي هي للنداء، وهمزة الوصل من الفعل (اسجدوا)، أسقطوها في رسمهم أيضاً، ووصلوا الياء بالسين، فصارت صورة الرسم (يسجدوا) (حيان: ٦٦/٧).

أمّا مجيء ياء النداء وبعدها فعل أمر، فقد عُرف مثله في الكلام العربيّ، وقد خرّج على حذف المنادى، ومنه قول الشاعر: (الذبيانيّ و الهادي: ٤٥٦) (ابن هشام: ٤٤٩/٤)

أَلَا يَا اسْقِيَانِي قَبْلَ غَارَةِ سَنْجَالٍ

وقول الآخر : (أبو صالح، ١٩٩٢م: ٥٥٩/١) (حيّان: ٦٦/٧) (والزركشي: ٦٨/٣)

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مِيٍّ عَلَى الْبَلَى

كما سمع بعض العرب يقول: أَلَا يَا اِرْحَمُونَا أَلَا تَصَدَّقُوا عَلَيْنَا (حيّان: ٤٢٧)

هذا التأويل الذي قال بحذف المنادى، وحذف الألف من (يا)، وهمزة الوصل من (اسجدوا)، إنما كان الدافع إليه الذود عن رسم المصحف الكريم، والبحث للتركيب عن وجه إعرابي ونظائر عربيّة، فأما النظائر فقد وُجِدَتْ وأثبت النحاة بعضها، وأما الوجه الإعرابي فإننا نلاحظ أنّ فيه تكلفاً، وابتعاداً عن معهود العرب في النظم، وحاملاً للقرآن الكريم على الضرورة، وهذا ممّا لا ينبغي، إذ إنّ المنادى، كما يقول أبو حيّان، "لا يجوز حذفه، لأنّه قد حُذِفَ العامل في النداء، وانحذف فاعله لحذفه، ولو حذفنا المنادى لكان ذلك حذف جملة النداء، وحذف متعلّقه وهو المنادى، فكان ذلك إخلالاً كبيراً" (حيّان: ٦٦/٧). لذا فإننا نرى صاحب البحر يرجّح رأياً آخر، يجد أنّه أيسر تأويلاً من سابقه، وأبعد عن التكلف، وهو أنّ (يا) التي حُذِفَتْ ألفها، إنّما هي زائدة، قد جرّدت من معنى النداء وخلصت إلى التنبيه (الأخفش: ٤٦٥/٢) (والزجاج: ١١٥/٤) (خالويه: ١٤٨/٢) (حيّان: ٦٦/٧)، وهذا التأويل، وإن كان على حمل أداة على الزيادة، فإنّه يبدو أقلّ تكلفاً من التأويل السابق، حيث حُذِفَ عناصر عدّة من التركيب. وقد جاز، هنا، مجيء حرفي تنبيه لقصد المبالغة في التوكيد (حيّان: ٦٦/٧).

وفي سورة (طه)، قال تعالى على لسان السحرة من قوم فرعون: {إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى} {طه: ٦٣}.

وقد قرئت هذه الآية بتشديد (إنّ)، وإثبات رسم الألف في (هاذان) (القيسي: ٥٩٢) (و النشار و المصري، ٢٠٠٠م: ٧٣/٢) (والدمياطي: ٣٨٤)، واختلف العلماء في تحريكها، لما جاء اسم (إنّ) و خبرها مرفوعين، فذهب بعضهم إلى أنّها على حذف ضمير الشأن، والتقدير: "إنّ هذان لساحران"، ويكون خبر (إنّ) هو جملة (هاذان لساحران)، أمّا اللام في قوله تعالى: (لساحران) فهي اللام المرحّلة ولكنها دخلت على الخبر (عبدة: ٢٢/٢) (الزجاج: ٣٦٢/٣) (الأنباري و البركات: ١٤٦/٢) (حيّان: ٢٣٨/٦). غير أنّ هذا لا يسوغ عند أبي حيّان لسببين، الأول: أنّ حذف ضمير الشأن لا يأتي إلّا في الشعر (حيّان: ٢٣٨/٦)، ومن ثمّ هو من باب الضرورة. والثاني: أنّ دخول اللام في الخبر شاذّ (حيّان: ٢٣٨/٦) لا ينقاس. وللتخلّص من الشذوذ في دخول اللام في الخبر، يقدر الزجاج مبتدأً محذوفاً وتكون اللام قد دخلت على ذلك المبتدأ المحذوف، والتقدير: لهما ساحران (عبدة: ٢٢/٢) (الزجاج: ٣٦٣/٣). ونلاحظ في هذا التأويل تحملاً شديداً، بسبب حمل هذه القراءة على الضرورة، ثمّ تأويلها على وجه إعرابي وُصِفَ أنّه شاذّ، ثمّ تحسين هذا الشاذّ بتقدير محذوف حتّى تستقيم القاعدة، كلّ ذلك حتّى تناسب القراءة ويوائم الرسم ما تقرّر في كتب النحو.

ويضعف أبو حيّان، أيضاً، رأياً آخر، والسبب هو أنّ التأويل على هذا الوجه يخالف الرسم، فقد قال بعضهم: إنّ (ها) هي ضمير الشأن وأنّه ليس بمحذوف (حيّان: ٢٣٨/٦)، خاصّة إذا علّم أنّ حذفه لا يأتي إلّا في الشعر، ويرى أبو حيّان أنّ (ها) لو كانت هي ضمير القصّة، كما قالوا، لوجب أن تكون متّصلة في الرسم، وبما أنّ خطّها جاء على صورة (إنّ هاذان لساحران) فإنّ تأويلهم يضعف من جهة مخالفته خطّ المصحف (حيّان: ٢٣٨/٦).

ويبدو أنّه يستحسن قولاً لبعض النحاة يحمل فيه (إنّ) على معنى (نعم)، وتكون فيه اللام في (لساحران) داخلة على مبتدأ محذوف، كما قال الزجاج من قبل. وهذا الرأي أقلّ تكلفاً من سابقه، مع ما فيه من حذف لتسوية القاعدة، أمّا مجيء (إنّ) بمعنى (نعم) فمعهود في الكلام العربي، وقد وردت شواهد من الكلام العربي على ذلك (سيبويه: ١٥١/٣) (السنكاوي: ٤٢٩) (الشجري و الشجري، ٦٥/٢) (الرقيات و الرقيات، ١٩٥٨م: ٦٦).

وأما أظهر الآراء عنده، وهو الذي وقع عليه اختياره، فهو أن تكون تلك القراءة، ومن ثمّ ذلك الرسم، على لغة العرب من كنانة ومن جاورها في إجراء المثني بالألف دائماً (والفارسي و الغفار، ٢٠٠٤م: ٧٣)، وهو بذلك يختار أيسر التأويلات وأبعدها عن التكلف والتقدير.

وفي قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتَى بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا} [الرعد: ٣١] استشكل بعض العلماء وجود كلمة (يُأَس)، والتي تعني: يقنط، في سياق هذه الآية الكريمة، إذ وجدوا أنّ حمل الكلام على ظاهره دون تأويل لا يصحّ، لأنّ المعنى إذ ذاك يكون: أفلم يقنط الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً. وهذا لا يناسب حال المؤمنين الذين اطمأنّت قلوبهم إلى أنّ الله يهدي من يشاء، ويضلّ من يشاء. وذهب بعضهم إلى أنّ هذا من خطأ نسخ كتاب الله، فقال: "إنما كتبه الكاتب وهو ناعس" (الطبري، ٤٥٢/١٦) (والكرمانبي: ٥٧٠/١) (والزمخشري و عمر، ٩٩٨٣/١: ٣٥٣) (والرازي و عمر، ١٩٨١م: ٥٥/١٩) (حيّان: ٣٨٣/٥) (عادل: ٣٠٨/١١). غير أنّ هذا الكلام لم يكن مقبولاً عند الكثير من المفسّرين، لما علموا أنّ رسم المصحف سنّة، وأنّ الصحابة احتاطوا أشدّ الاحتياط في إثباته، يقول الزمخشري ردّاً على من قال بتخطئة الكتّبة: "وهذا ونحوه ممّا لا يصدق في كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وكيف يخفى مثل هذا حتّى يبقى ثابتاً بين دفتيّ الإمام، وكان متقلّباً بين أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله، المهيمين عليه، ولا يغفلون عن جلالته ودقائقه، خصوصاً عن القانون الذي إليه المرجع، والقاعدة التي عليها البناء، وهذه والله فرية ما فيها مرية" (الزمخشري: ٣٥٣/٣). من أجل ذلك حاول المدافعون عن قراءة الجمهور، وعن هذا الرسم أن يؤوّلوا الآية تأويلاً، يتناسب مع سياقها العام، ولا يصحّف خطّها.

وقد ذُكر من نبأ نزول هذه الآية أنّ المشركين من قريش قالوا لرسول الله: "سِرَّ جبلي مكة فقد ضيقا علينا، واجعل لنا أرضاً قطعاً غراساً، وأحي لنا آباءنا وأجدادنا، وفلاناً وفلاناً" (حيّان: ٣٨١/٥) (الموصلّي: ٤١-٤٠/٢) (والطبريّ و جعفر: ٤٧/١٦-٤٥٠). فنزلت هذه الآية معلّمة أنّهم لا يؤمنون ولو كان ذلك كلّه.

وذهب كثير من النحاة والمفسّرين إلى أنّ الفعل (يأس) قد ضمّن معنى الفعل (يعلم)، والتقدير: "ألم يعلم الذين آمنوا" (الدينوريّ و مسلم، ١٩٧٨م: ٢٢٧). وقد اعتمد أولئك المؤولون على أنّ التضمين سبيل من سبل العرب في كلامها، وباب يطرقه النحاة حين يعزّ عليهم حمل الكلام على الظاهر. وعزّزوا رأيهم ذاك بالسمع وبالقرائات القرآنية الأخرى لهذه الآية.

أمّا السماع فقد ذكر بعض اللغويين أنّ محيئ اليأس بمعنى العلم وارد في لغات العرب (الأزرق و نافع، ١٩٩٣م: ٧٠)، فقال القاسم بن معن: هي لغة هوازن. وقال ابن الكلبي (١٤٦هـ): هي لغة من النخع. وأنشدوا قول الشاعر: (الدينوريّ و مسلم، ١٩٨٤م: ١١٤٨/٣)

أَقُولُ لَهُم بِالشَّعْبِ إِذْ يَسْرُونِي أَلَمْ تَيَاسُوا أَيُّ ابْنِ فَارِسٍ زَهَمَ

أي: ألم تعلموا. وقال رباح بن عدي: (أبو حيّان: ٣٨٢/٥)

أَلَمْ يَيَاسِ الْأَقْوَامُ أَيُّ أَنَا ابْنُهُ وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِيَا

وقال آخر: (ليبيد، ١٩٦٢م: ٣١١)

حَتَّى إِذَا يَكْسَ الرُّمَاءُ وَأَرْسَلُوا غَضَضًا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَعْصَامُهَا

وأمّا القراءات القرآنية، فقد روي أنّ عليّاً، وابن عبّاس قد قرأا الآية: (أفلم يتبين الذين آمنوا) (الفراء: ٦٣/٢) من بيّنت كذا إذا عرفتّه.

هذا، وقد رغب بعض المفسّرين عن حمل (يأس) على معنى (علم)، ورأوا أنّ هذا الفعل باقٍ على أصل معناه من القنوط، وتأولوا ذلك، فقال الكسائي: المعنى هو: "أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان الكفار من قريش المعاندين لله ورسوله؟" (حيّان: ٣٨٣/٥) ومن هذا التقدير نتبين أنّ في الكلام حذفاً قدره الكسائي بما يتناسب مع سبب النزول الذي عرفه. غير أنّنا إذا أنعمنا النظر في هذه الصورة التركيبية التي يؤول إليها الكلام على قول الكسائي، نجد أنّ هذا التأويل يحدث في الكلام خلافاً، من حيث أنّه لا يتناسب مع سياق الآية اللاحق، إذ يقطع قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَيَاسِ الَّذِينَ آمَنُوا} عمّا بعده، ويصبح الكلام: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان الكفار من قريش المعاندين لله ورسوله؟ أن لو يشاء الله. وهذا غير سائغ، كما يتّضح.

وكذا، فقد قال أبو العبّاس: إنّ (يأس) هاهنا على معناه الأصلي، ولا تضمين، وتأويل الكلام عنده: "أفلم ييأسوا بعلمهم أن لا هداية إلاّ بالمشيئة؟" (حيّان: ٣٨٣/٥) وفي هذا الوجه التركيبيّ نراه يقدر شبه جملة،

مكوّنة من حرف جرّ هو الباء، واسم مجرور، ويحمل معنى (الباء) على معنى (على)، وهذا وارد في القرآن الكريم والكلام العربيّ. بالإضافة إلى أنّه تصرّف بالكلام بأن ابتدع أسلوب حصر، منبعثاً من صميم فهمه للآية ومناسباً لسياقها. ويبدو أنّ أسلوب القصر في هذا التأويل قد جاء ليفيد التقوية والتأكيد أنّ الله هو الهادي، وأن لا هداية إلاّ بمشيئته .

أما أبو حيّان فإنه يرى رأياً آخر، يعتمد فيه على قرينة الوقف، ويستفيد من معاني أسلوب الاستفهام، فيقول: إنّ الاستفهام في الآية استفهام تقرير، إذ الكلام قد تمّ عند قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا} ثمّ يُستأنف من جديد. والتقدير: "قد يؤس المؤمنون من إيمان هؤلاء المعاندين" (حيّان: ٣٨٣/٥). ويكون قوله عزّ وجلّ: {أَنْ لَّوْ يَشَاءَ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا} جواب قسم محذوف، و(أن) رابطة لجواب القسم، والتقدير: "وأقسموا لو شاء الله لهدى الناس جميعاً" (حيّان: ٣٨٣/٥) ودلّ على إضمار هذا القسم وجود (أن) مع (لو)، كقول الشاعر: (الفراء: ٤٤/٢)

أَمَا وَاللَّهِ أَنْ لَوْ كُنْتُ حُرًّا وَمَا بِالْحُرِّ أَنْتَ وَلَا الْقَمِينِ

وقول الآخر: (جابر، ١٩٢٨م: ٣٥٨)

فَأَقْسِمُ أَنْ لَوْ التَّقِينَا وَأَنْتُمْ لَكَانَ لَنَا يَوْمٌ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمٌ

ويتّضح من هذا التحليل أنّ أبا حيّان قد اعتمد على قرينة الوقف، فجعل الكلام كلامين لا يتعلّق أحدهما بالآخر. لكننا لم نجد، فيما توافر لنا من كتب، أحداً من العلماء قد قال بالوقف على الموضع الذي قاله أبو حيّان، وهذا يعني أنّ صاحب البحر قد أراد تطويع هذه القرينة الصوتية لبني الوجه الذي رأى أنّ المعنى يؤول إليه. أمّا حذف جملة القسم، فهو في كلامهم كثير جدّاً، أي: إنّ التأويل هنا لم يخرج عن معهود كلام العرب. وأمّا حمل الاستفهام على التقرير، فكثير أيضاً، غير أنّه لا يتناسب مع معطيات المقام في هذه الآية والمتمثلة بسبب النزول، وأحوال المؤمنين، إذ توضّح لنا الأخبار وروايات أسباب النزول أنّ المؤمنين لم يأسوا من إيمان كفّار مكّة المعاندين، بل كثيراً ما تمتّوا ذلك وأرادوه.

وهكذا نرى كيف تنوّعت تحليلات النحويّين والمفسّرين وتأويلاتهم لهذه الآية، ليبينوا أنّ مجيء الفعل (يُنبأ) هاهنا ممكن، وليس هو من قبيل خطأ كتّبه، أو سهوهم وقلة انتباههم.

وكثيراً ما كان الرسم القرآنيّ قرينة تعزّز الوجه التأويليّ الذي اختاره أبو حيّان، أو غيره. فمثلاً، في قوله تعالى: {وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: ٤٥-٤٦] يذهب أبو حيّان إلى أنّ الفعل (يظنون) محمول على معنى الفعل (يوقنون)، إذ إنّ أصل الظنّ رجحان أحد الطرفين، والحديث في هذه الآية عن المؤمنين الموقنين الخاشعين، لذا كان القول بتأويل الفعل وحمله على معنى اليقين. وقد عزّز هذا التأويل أنّ رسم الآية في مصحف عبد الله كان: (الذين يعلمون أنّهم ملاقوا ربّهم) (حيّان: ٣٤٢/١).

وكذا قد يستدل أبو حيان على المحذوف من الآية، إذا لحظ رسمها في أحد المصاحف. ففي قوله تعالى: {وَأَمَّا الْعُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [الكهف: ٨٠] يرى أبو حيان أن سياق الآية يستدعي محذوفاً، هو: وكان كافراً. وأكد هذا الرأي أن الآية رُسمت هكذا في مصحف أبي (حيان: ٣٤٢/٦).

وفي قوله عز وجل: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى} [البقرة: ٢٠٣] غاب مفعول الفعل (اتقى)، فتعددت تقديرات النحاة له في ضوء سياق الآية، فقال قتادة وأبو صالح: اتقى جميع المحظورات في حال اشتغاله بالحج (حيان: ٣٤٢/٢) وقال ابن عباس: لمن اتقى في الإحرام الرفث والفسوق والجدال. وقال المائثدي: لمن اتقى قتل الصيد في الإحرام (حيان: ١٢١/٢). أما أبو حيان فكان التقدير عنده: لمن اتقى الله. لأنه كذلك جاء مصرحاً به في مصحف عبد الله (حيان: ١٢١/٢).

الخاتمة

وبعد يتبين لنا أثر الرسم القرآني في التحليل النحوي، إذ كان احترام أبي حيان لقداسة هذا الرسم ومكانة مؤدبه سبباً يجعله يحاول أن يجد وجهاً من أوجه العربية لما خالف قواعد النحاة منه.

المراجع

- ابن أبي داود السجستاني، أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث، كتاب المصاحف، تحقيق: محب الدين عبد السجنان واعظ، ط ٢، (لبنان، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م)
- ابن الأزرقي، نافع، مسائل نافع بن الأزرق عن عبد الله بن عباس، حققها وعلّق عليها ووضع فهرسها: محمد أحمد الدالي، ط ١، (قبرص، الجفان والجاي للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م)
- ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، شرح صحيح البخاري، ط ٢، (السعودية، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م)
- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم، تفسير غريب القرآن، تحقيق: السيّد أحمد صقر، د. ط، (لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م)

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تحفة الطالب بمعرفة أحاديث مختصر ابن الحاجب، تحقيق: عبد الغني بن عبد الحميد بن محمود الكبيسي، ط ١، (السعودية، مكة المكرمة، دار حراء، ١٤٠٦ هـ)
- أبو يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن مثنى التميمي، مسند أبي يعلى الموصلي، حققه وخرّج أحاديثه: حسين سليم أسد، ط ١، (سوريا، دمشق، دار المأمون للتراث، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م).
- إسماعيل، شعبان محمد: رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة، ط ٢، (مصر، القاهرة، دار السلام، ٢٠٠١ م)
- الأكرت، عبد التّوّاب مرسي حسن، الضبط المصحفي نشأته وتطوّره، ط ١، (مصر، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م)
- الجزائري، أحمد بن أحمد شرشال، مخالفات النسخ ولجان المراجعة والتصحيح لمرسوم المصحف الإمام، ط ١، (مصر، القاهرة، دار الحرمين، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م)
- الحمد، غانم قدوري، رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية، ط ١، (العراق، بغداد، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م)
- الدائي، أبو عمرو عثمان بن سعيد، المقنع في رسم مصاحف الأمصار، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، د.ط، (مصر، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، د.تا)
- ديوان الشماخ بن ضرار الديبائي، حققه وشرحه: صلاح الدين الهادي، د.ط، (مصر، القاهرة، دار المعارف، د.تا)
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عبد السلام تدمري، ط ١، (لبنان، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م)
- الراجحي، عبده، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، د.ط، (مصر، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦ م)
- الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين عمر، مفاتيح الغيب، ط ١، (لبنان، بيروت: دار الفكر، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م)
- زرزور، عدنان محمد، علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه، ط ١، (الأردن، عمان، دار الأعلام، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م)

الزمخشريّ، أبو القاسم جار الله، محمود بن عمر، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود ومحمد عليّ معوض، ط ١، (السعودية، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م)

السعيد، لبيب، الجمع الصوتي للقرآن الكريم أو المصحف المرتل بواعثه ومخططاته، د.ط، (مصر، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، د.تا)

شلي، عبد الفتاح إسماعيل، رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم: دوافعها ودفعها، د.ط، (السعودية، جدة، دار المنارة، د.تا)

الشنقيطي، محمد حبيب الله بن الشيخ عبد الله، إيقاظ الأعلام لوجوب اتباع المصحف الإمام عثمان بن عفّان، ط ٢، (سوريا، دمشق، مكتبة المعرفة، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م)

صالح، عبد الكريم إبراهيم عوض، المتحف في رسم المصحف، ط ١، (مصر، طنطا، دار الصحابة للتراث، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م)

الفرماويّ، عبد الحّي حسين، رسم المصحف ونقطه، ط ١، (السعودية، مكة المكرمة، المكتبة المكيّة/ جدة، دار نور المكتبات، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م)

الكرديّ، محمد طاهر عبد القادر، تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه، د.ط، (السعودية، جدة، ١٣٦٥هـ) محسن، محمد سالم، تاريخ القرآن الكريم، (المغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، سلسلة دعوة الحق، السنة الثانية، ١٤٠٢هـ)

محسن، محمد محمد سالم، الفتح الربّانيّ في علاقة القراءات بالرسم العثمانيّ، د.ط، (السعودية، الرياض، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م)

النحّاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل، شرح القصائد التسع المشهورات، تحقيق: أحمد خطّاب، (العراق، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م)

النسائيّ، أحمد بن شعيب، فضائل القرآن، تحقيق: فاروق حمادة، ط ٢، (لبنان، بيروت، دار إحياء العلوم/ المغرب، الشركة الجديدة دار الثقافة، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م)